

التفسير المطول - سورة آل عمران 003 - الدرس (16-60): تفسير الآيات 49 - 52

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 02-03-2001

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلاة ، والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين ، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم ، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً ، وأرنا الحق حقاً وارزقنا إتباعه ، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه ، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة المؤمنون ، مع الدرس السادس عشر من دروس سورة آل عمران ، ومع الآية الخمسين ، وهي قوله تعالى :

(وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِحُلِّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[سورة آل عمران : الآية 50]

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ

وكانت الآية التي قبلها :

(قَالَتْ رَبِّ أُنَّى يُكُونُ لِي وُلْدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ }47{ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالتَّانِجِيلَ }48{ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّن الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُم إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران]

1 - الرسول معه منهج :

أولاً : أيها الإخوة ، حينما يأتي إنسان ، ويخاطب الناس يقول : إني رسول الله ، فشيء طبيعي جداً أن يقال له : أنت كاذب ، ذلك أن الرسول معه منهج ، والمنهج افعل ولا تفعل ، والناس متقلتون ، الكافر ليس عنده قيد ، طليق من كل قيد ، يأكل ما يشتهي ، ويلتقي مع من يشتهي ، ويذهب إلى أي مكان

يشتهي ، أي حركته غير مرتبطة بمنهج تبعثها شهواته فقط ، فمثل هذا الإنسان إن جاءه إنسان مثله ، وقال : إني رسول الله ، سيقول له : أنت كاذب ، ذلك لأنه سيمنعه من أشياء يحبها .

2 - الرسول معه معجزة مناسبة لعصره :

إذا أن يُكذَّب الأنبياء شيء طبيعي جداً ، أن يُكذَّب الدعاة إلى الله شيء طبيعي جداً ، كيف شهد الله بهؤلاء الرجال الذين هم قمم البشر ، شهد لهم أنهم رسله ، أيدهم بالمعجزات ، أيدهم بشيء لا يستطيعه مخلوق من بني البشر ، ولحكمة أرادها الله عز وجل أن المعجزة ينبغي أن تتناسب مع العصر ، وأن تكون في موضوع تفوق فيها أهل العصر ، الآن هناك تفوق بالكمبيوتر مثلاً ، يقول لك : أربعمائة وخمسين مليون حرف في الثانية ، فلو جاء نبي في هذه الأيام فسيأتي بشيء من طبيعة العصر . في زمن السيد المسيح كان الطب متفوقاً جداً ، وفي أيام سيدنا موسى كان السحر متفوقاً جداً ، في أيام رسول عليه الصلاة والسلام كانت الفصاحة ، والبلاغة ، والأدب ، والشعر في أعلى درجة ، فالمعجزة ينبغي أن تكون تحدياً لقوم النبي فيما برعوا فيه ، والإنسان متى يخضع لك ؟ سحرة فرعون لماذا حرقوا المراحل كلها ، وفي ثوان معدودات خروا لله ساجدين ؟ لأنهم سحرة ، جاؤوا بأنابيب ، ورسموها على شكل أفعى وثعابين ، وضعوها في معدن الزئبق ، وجعلوها فوق مستوي ساخن ، والسخونة مددت الزئبق ، وتحرك هذا الأنبوب المطاطي ، وكأنه ثعبان مبيّن ، فلما رأوا ثعباناً حقيقياً كان قبل دقيقة عصاً فإذا هي ثعبان مبيّن ، لأنهم سحرة ، ولأن هذا الشيء الذي رأوه فوق طاقتهم ، خروا لله ساجدين .

الاكتشاف العلمي طريق هداية :

إذا قال طبيب : أنا ألفت كتاباً في علم الأجنة يصبح وكأنه إنجيلٌ لشدة هيمنته على باقي الكتب ، وانتشار هذا الكتاب في شتى جامعات العالم ، وهو يبيّن أن العظم يتخلّق بعد اللحم ، ثم يكتشف فجأة أنه كان مخطئاً في هذا ، وأنّ العظم يتشكل أولاً ، ثم يُكسى باللحم ، ودخل مرة على طلابه في جامعة أكسفورد ببريطانيا وقال : عندي فتح جديد ، وعندي كشف لم أسبق إليه ، وعندي ، وعندي... أي هو قطب في اختصاصه ، وهو متوهم سابقاً أنّ العظام تُشكل بعد اللحم وألقى هذه القنبلة ، وقال : العظم يتشكل على خلاف ما في كتابي ، فقام طالب مسلم من تلاميذه ، وقال له : يا أستاذ هذه الحقيقة جاء بها القرآن قبل أربعة عشر قرناً ، فلم يصدقه ، دُهِش ، فلما جاءه هذا الطالب في اليوم الثاني بالقرآن الكريم مُترجماً إلى اللغة الإنكليزية قرأ فيه :

(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون : الآية 14]

يُروى أنه أسلم ، لماذا ؟ لأن هذا هو اختصاصه ، سنوات وسنوات ، وعقود وعقود ، وهو متوهم أن اللحم يتخلق أولاً ، والعظام ثانياً ، فلما اكتشف العكس وظن أنه سبق كل علماء عصره صُعِقَ لما رأى في كتاب أنزل قبل أربعة عشر قرناً يبين ذلك ، لذلك قال تعالى :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

[سورة فاطر : الآية 28]

ذكرت لكم مرة أنّ هناك آية قرآنية لو سمعها عالم فلك لخر ساجداً ، وهي قوله تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

[سورة الواقعة : الآية 75]

من كلمة واحدة ، وهي كلمة مواقع ، إنّ هذا النجم العملاق ، وهذه المجرة العملاقة التي تبعد عنا عشرين مليار سنة ضوئية ، مع أن الضوء يقطع في الثانية الواحدة ثلاثمائة ألف كيلو متر ، وفي الدقيقة ، وفي الساعة ، وفي اليوم ، وفي الشهر ، وفي السنة ، وفي عشرين مليار سنة ، كم تبعد عنا هذه المجرة ؟

إن أقرب نجم ملتهب إلينا يبعد عنا أربع سنوات ضوئية ، لو أردنا أن نصل إليه بمركبة أرضية لاحتجنا إلى خمسين مليون عام ، بمركبة أرضية نحتاج إلى خمسين مليون عام كي نصل إلى أقرب نجم ملتهب على الإطلاق ، فإذا كانت هذه المجرة تبعد عنا عشرين مليار سنة ، أي بقي ضوءها يسير في الفضاء عشرين مليار سنة حتى وصل إلينا ، وحتى رصدناه في مرآدنا ، هذه المجرة التي أرسلت إلينا هذا الضوء قبل عشرين مليار سنة سرعتها تقترب من الضوء ، سرعتها كما قُدّرت مئتين وأربعين ألف كيلو متر بالثانية ، أين هي الآن ؟ لو قال الله تعالى : فلا أقسم بالمسافات بين النجوم لم يكن هذا قرآناً ، ولا كلاماً خالداً ، إنما قال :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ)

وكلمة موقع تعني أنّ صاحب الموقع ليس شرطاً أن يكون في الموقع ، فقد تركه ، هذا موقع فلان ، وأين فلان ؟ لا نعرف ، هذا موقعه ، فعلى كل أيها الإخوة قال تعالى :

(سُنُّرِهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ)

ولأنّ هذا العصر هو عصر علم ، وتفوق ، وفضاء ، وذرة ، وحواسيب ، لذلك سمح الله عز وجل لنفسه أن يوازن ذاته العلية مع بعض مخلوقاته ، قال :

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

[سورة الأنعام : الآية 62]

الآن الحواسيب المتطورة جداً - طبعاً هذه لا تأتينا نحن - الحاسب العادي يقرأ أربعمئة وخمسين مليون حرف في الثانية الواحدة ، فحينما تعطي الأمر ، وتضغط على الزر فتأتي هذه النتيجة على الشاشة فوراً ، هذا من صنع الإنسان ، فكيف هو الواحد الديان ؟ قال :

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

حسابه أسرع .

أيها الإخوة ، وقال سبحانه :

(أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة الصافات : الآية 125]

الكلية الصناعية كالطاوله ، لا بد أن تستلقي ، يستلقي الإنسان على ظهره لا سمح الله ، ولا قدر ، لا بد أن يستلقي الإنسان على ظهره ثماني ساعات لتصفية دمه ، مع تعطيل وقت ، وجهد ، وألم ، ونفقة باهظة ، أما هذه الكلية الطبيعية بحجم البيضة فتعمل بصمت ، وأنت نائم ، وأنت تمشي ، وأنت تعمل ، وأنت راكب في مركبتك ، أي كل عصر له شيء في تفوق ، فحينما تفوق الناس بالسحر جاء موسى بسحر حطم ما يتوهمون أنه سحر ، جاء بمعجزة ، وحينما تفوق الناس في الطب السيد المسيح أحيا الموتى ، لم يكن هناك طب ، يوجد إحياء للميت ، يبذلون العناية :

إِنَّ الطَّبِيبَ لَهُ عِلْمٌ يَدُلُّ بِهِ إِنْ كَانَ لِلنَّاسِ فِي الْأَجَالِ تَأْخِيرٌ

حَتَّى إِذَا مَا انْتَهَتْ أَيَّامَ رِحْلَتِهِ حَارَ الطَّبِيبُ وَخَانَتْهُ الْعَقَاقِيرُ

والدليل أن الملوك يموتون ، ما معنى ملك ؟ أي أن أطباء العالم في خدمته ، قد يأتون به بأطباء من شتى بقاع الأرض ، الأدوية النادرة تأتيه ، له أعلى عناية على الإطلاق ، ومع ذلك يموتون ، الأقوياء يموتون ، والملوك يموتون ، وكل مخلوق يموت ، ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت ، لا يوجد في الطب إحياء ميت ، هناك معالجة ، وتسكين آلام ، وبتر عضو ، وعملية جراحية ، وتخفيف ، ولكن لا يوجد إحياء ميت ، ففي عصر السيد المسيح كان الطب متفوقاً فكانت معجزته قوله تعالى :

(أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ)

[سورة آل عمران : الآية 49]

إن وجدت في محل ألبسة للأولاد مجسماً من الشمع لطفلة جميلة جداً ، وضعها أمام ابنتك التي تأخذ جزءاً من لبك ، هل توازن هذه مع هذه ؟ امرأة فيها حياة وحيوية ، وابتسامه ، وتفكير ، ومشاعر ، وعواطف ، وهناك أجهزة معقدة جداً ، تجد في عيناها فقط مائة وثلاثين مليون عصبية ومخروط ، في رأسها ثلاثمائة ألف شعرة ، لكل شعرة شريان ، ووريد ، وعصب ، وعضلة ، وغدة دهنية ، وغدة صبغية .

وفي المعدة خمسة وثلاثون مليار غدة هاضمة ، وفي الدماغ مئة وأربعين مليار خلية استنادية لم تعرف وظيفتها بعد ، هذه هي الطفلة ، فوازن بين مجسم لطفلة يوضع في محل ألبسة و طفلة حقيقية ، بين ورده صناعية مصنوعة من مادة كيميائية و ورده طبيعية ، قال تعالى :

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

[سورة المؤمنون : الآية 14]

هذا النبي الكريم قال ، قال تعالى :

(أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا)

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ

طائر من جبصين ، يطير ، وله رنتان ، وشرايين ، وأوردة ، وقلب ، وله عيان ، وأجهزة كاملة ، قال تعالى :

(أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَبْرَأُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأَحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ)

[سورة آل عمران : الآية 49]

الأكمة أي من وُلِدَ أعمى ، والأبرص هذا اللون الغريب في جسم الإنسان ، والذي لا دواء له ، وأحيي الموتى ، لكن دقق في كلمة واحدة : (بإذن الله) ، النبي لا يستطيع بذاته أن يفعل شيئاً ، لأنه بشر مثلنا : (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ)

[سورة الكهف : الآية 110]

إلا أنه بقدرة الله عز وجل يفعل كل شيء سمح الله له به ، هي قاعدة حينما يأتي النبي بمعجزة فهي بإذن الله ، وحينما ينبئنا بخبر صادق ، هذا من علم الله لا يعلم إلا أن يعلم ، ولا يفعل شيئاً إلا أن يمكنه الله منه ، قال تعالى :

(وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ)

[سورة آل عمران : الآية 49]

هذا الشيء مستحيل :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

[سورة آل عمران : الآية 49]

1 - لفظة رائعة في قوله : لآية لكم إن كنتم مؤمنين

هذه اللفظة الرائعة :

(لآية لكم إن كنتم مؤمنين)

قد يقول قائل : نحن إن رأينا هذه الآية نؤمن ، هنا الإيمان يجب أن يسبق هذه الآية ، ما معنى الآية ؟ معناها أنه إذا أردت أن تؤمن فأبشئ في الأرض يدلك على الله ، البعرة من البعير ، والماء من الغدير ، والأقدام تدل على المسير ، أفسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، ألا تدلاني على الحكيم الخبير ، فإن أردت أن تؤمن فأبشئ في الأرض يدلك على الله ، وإن أردت ألا تؤمن فلن تؤمن ، ولو عاصرت الأنبياء مجتمعين ، ولو كنت في أكبر محطة فضائية ، ولو كنت على (ميكرو سكوب) مجهر يُكبر أربع مائة ألف مرة ، ولو رأيت بعينيك المجرات ، ولو غصت في أعماق البحار ، وحلقت في أعلى الأجواء لا تؤمن ، فهي قضية قرار تتخذه من داخلك ، إن أردت أن تؤمن كل شيء يدلك على الله ، وإن أردت أن لا تؤمن ، وأردت الشهوة فلا ترى شيئاً ، قال تعالى :

(صمُّ بكم عمي فهم لا يعقلون)

[سورة البقرة : الآية 171]

2 - إن كنتم مؤمنين فلا بد أن تتأثروا بهذه الآية :

كمثل بسيط : آلة تصوير متواضعة جداً ، أرخص آلة في البلد فيها فيلم ، وأعلى آلة على الإطلاق ثمنها خمسمائة ألف ليرة ، لا يوجد فيها فيلم ، فهذه الآلة المتواضعة إن كان بها فيلم فهي تلتقط الصورة ، أما التي ليس فيها فيلم فلا تلتقط أية صورة ، ما معنى ذلك ؟ مهما كنت ذكياً إن لم تُرد الحق فلا ترى الحق ، صمُّ بكم عمي ، وإن كنت متوسط الذكاء ، بل أقل من المتوسط ، وأردت أن تؤمن فكل شيء في الكون يدلك على الله :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

هذه الآية احفظوها ، لأن مثيلاتها كثيرة جداً ، قال تعالى :

(إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين)

أي إن أردتم الإيمان ، إن كان الإيمان هدفاً لكم ، إن كان الإيمان مقصداً سامياً لكم هذه آية . أحياناً تكون في مكان يُتلى فيه القرآن فتجد شخصاً يبكي ، ويتأثر ، وآخر لا يتأثر أبداً ، الذي يبكي ، وتأثر يعيش أجواء القرآن ، والذي لم يتأثر هو بعيد عن أجواء القرآن ، لذلك قالوا : إن الإنسان أحياناً يستمع إلى نص قرآني ، أو نص نبوي ، أو نص من الحكم فتتحرك مشاعره ويتأثر ، ماذا فعل هذا

النص ؟ حرّك ما عندك من مشاعر فتأثرت ، أما من كان خاوياً ، وليس عنده شيء يتحرك لو تلوّث عليه القرآن كله لم يتأثر ، هذا معنى قوله تعالى :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)

إن كنتم مؤمنين تتأثرون بهذه الآية ، شخص عنده مشكلة كبيرة في البيت ، مثلاً هناك خلل بالأنابيب ، وحدث طوفان بسبب الماء ، وأتلف الأثاث ، وخرج من بيته كالسهم يبحث عن قطعة قد تعطلت في تمديداته الصحية ، هذا لا يرى شيئاً في الطريق ، لا شخصاً ، ولا صديقاً ، ولا محلاً لبيع الثريات ، ولا محلاً لبيع التحف ، ولا محلاً لبيع الطعام ، إنه يبحث عن طلبه ، فهو أعمى إلا عن طلبه ، لذلك قالوا : حُبِّكَ الشَّيْءُ يُعْمِي وَيُصِمُّ ، الذي أحب الدنيا أعمته عن كل حقيقة :

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِحَالٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[سورة آل عمران]

وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِحَالٍ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

1 - وحدة الأصل تعني وحدة الفروع :

هنا عندنا قاعدة ثانية ؛ وهي أن وحدة الأصل تعني وحدة الفروع ، هناك فروع عديدة ، فإن كانت هذه الفروع منبثقة عن أصل واحد فهي متحدة فيما بينها .
الإنجيل من عند الله كما نزل طبعاً ، والتوراة من عند الله ، والقرآن من عند الله ، والأصل واحد ، إذ هذه الكتب ينبغي أن يصدق بعضها بعضاً كما نزلت ، لأن اتحاد الأصل يعني اتحاد الفروع ، إن الإنسان عنده نقل ، وهو الوحي ، وعنده عقل ، من خلق العقل ؟ الله جل جلاله ، ومن أرسل النقل ؟ الله جل جلاله ، ومن جبل الإنسان جبلة نفسية معينة ؟ الله جل جلاله ، ومن خلق الكون ؟ الله جل جلاله ، لا بد من توافق - هذه الكلمة مستعملة الآن توافقية - توافق بين النقل الذي هو وحي السماء والعقل الذي هو مقياس أودع في الإنسان ، والفطرة التي هي جبلة جُبلنا عليها ، والواقع الذي هو من خلقه ، لا بد من اتحاد هذه الأركان الأربعة ، لأن الكون خلقه ، والجبلة فطرته ، والعقل مقياسه ، والوحي كلامه ، لا يمكن أن يتناقض كلامه مع مقياس العقل ، ومقياس الفطرة والواقع ، هذا هو الحق ، إنه شيء جاء به النقل ، وأقر به العقل ، وارتاحت له الفطرة ، وأيده الواقع ، هذا هو الحق ، لا زلنا في هذه القاعدة الأصولية ؛ اتحاد الأصل يعني اتحاد الأصول .

قال تعالى :

(وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَإِلَّا لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ)

[سورة آل عمران : الآية 50]

2 - بنو إسرائيل حرّموا على أنفسهم أشياء لم يُحرّمها الله عليهم :

إن بني إسرائيل حرّموا على أنفسهم أشياء لم يُحرّمها الله عليهم ، وهناك معنى آخر ؛ أن الله حرّم عليهم أشياء ، وتحريمها تأديب لا تشريع ، فالنبي عليه الصلاة والسلام ، والسيد المسيح أحلّ لهم ما حرّم عليهم ، إما تأديباً ، أو توهماً من قِبَل أنفسهم ، لذلك أيها الإخوة ، قد نظن أنه من الخطر الشديد جداً أن نحلل الحرام ، هذا جريمة ، لكن لا تنسوا أن هناك جريمة لا تقلّ عنها ، وهي تحريم الحلال ، تحريم الحلال لا يقلّ انحرافاً في العقيدة عن تحليل الحرام ، فأنت مكلف ألا تُحلّ حراماً ، وألا تُحرّم حلالاً ، أحياناً يشتهي الإنسان الاجتهاد من عنده ، فهذا حرام .

خطورة التحليل والتحريم :

حينما أرى رجلاً يستعجل ، ويقول : هذا حرام ، أعجب أشدّ العجب ، المُحلّل والمُحرّم هو الله ، ومن يجرو من بني البشر كائنات من كان أن يحلّ شيئاً حرّمه الله ، أو أن يُحرّم شيئاً أباحه الله ، حتى إن رماة أحد الذين عصوا رسول الله صلى عليهم وإن عصوه ، قال علماء السيرة : إنهم عصوا أمراً تنظيمياً ، ولم يعصوا أمراً تشريعياً ، وشتان بين الأمر التشريعي الذي هو من عند الله ، وبين الأمر التنظيمي ، لو فرضنا أن لهذا الحرّم باباً ، وأنا قلت : تيسيراً للنظام : يكون الدخول من هذا الباب ، والخروج من الباب الآخر ، هذا أمر تنظيمي ، فإن كان هناك شخص خالف هذا الأمر فهو خالف أمراً تنظيمياً ، أما الخمر فحرام ، فمن يشربها فقد خالف أمراً تشريعياً ، الزنا حرام ، فالذي يزني فقد خالف أمراً تشريعياً ، فالمسافة كبيرة جداً بين مخالفة الأمر التنظيمي ، وبين مخالفة الأمر التشريعي ، فرماة أحد مع أنهم عصوا النبي عليه الصلاة والسلام ، ولم يبقوا في أماكنهم إلا أن الله سبحانه وتعالى سمح لنبيه الكريم أن يصلي عليهم ، لأنهم لم يعصوا أمراً تشريعياً ، بل عصوا أمراً تنظيمياً ، قال تعالى :

(وَإِلَّا لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا)

[سورة آل عمران : الآية 50]

الآية إحياء الموتى ، وشفاء الأكمه ، والأبرص ، وإنباء قومه بما في بيوتهم من طعام وشراب قال تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ

الطريق إلى الله سالك :

النبي بشر مثلنا ، أي إن أردت أن تصل إلى الله فالطريق إليه سالك قال :
(لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ)

[سورة التكويد : الآية 28]

حينما تتعرف إلى الله تسأل كيف الوصول إليه ؟ كيف أنال رضاه؟ كيف السبيل أن يحبني الله عز وجل؟ فحينما تعرف الله تنشأ عندك رغبة أكيدة أن تطيعه ، وأن تصل إليه ، وأن تطلب وده .
قال تعالى :

(وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ)

[سورة مريم : الآية 36]

قد تجد إنساناً قويا جداً ، وببده كل شيء ، لكن لا طريق إليه ، ليس بالإمكان أن تقابله ، ولا أن تتصل به ، ولا أن ترفع إليه كتاباً ، مستحيل ، فما قيمة قوته ؟ وما قيمته أخلاقه ؟ وما قيمة عطائه ، وكرمه ، وفضله إن كان الطريق إليه ليس سالكاً ؟ أما ربنا جل جلاله فبيده كل شيء ، لكن الطرائق إليه بعدد أنفاس الخلائق ، وأنت في بيتك هناك مئة طريق وطريق إليه ، أن تكون زوجاً محسناً ، أن تكون ابناً باراً ، أن تكوني زوجة طائعة لله ولزوجك ، أن تكوني ابنة محببة ، ومستقيمة عفيفة ، وأنت في البيت هناك مئة طريق وطريق إلى الله ، وأنت في متجر هناك مئة طريق وطريق ، صدقك عمل صالح ، نصحك للمسلمين عمل صالح ، إتقانك لعملك عمل صالح ، رغبتك في خدمة المؤمنين عمل صالح ، لذلك الله بيده كل شيء ، لكن الطرائق إليه بعدد أنفاس الخلائق ، والآية واضحة جداً :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

[سورة الكهف : الآية 110]

إن أردت أن تلتقي مع الله لقاءً يليق بكماله وتتحمله ، أي قال له :

(قَالَ رَبِّ أَرْنِي أُنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ نُنظِرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا)

[سورة الأعراف : الآية 143]

استحالة رؤية الله في الدنيا ، وجواز رؤيته يوم القيامة :

أي جبلاً عملاقاً كجبل همالايا تجلى الله عليه فاخفى ، فأنت لا تتحمل أن ترى الله في الدنيا ، لكنّ النبي وعدنا أنّ المؤمنين يرون ربهم في الجنة كما نرى القمر ليلة البدر ، وهناك بعض التفاصيل أنّ الذي ينظر إلى وجه الله الكريم يغيب من نشوة النظرة خمسين ألف عام ، وأنّ أكبر عقاب يُعاقب به الإنسان يوم القيامة أنه محجوب عن الله ، قال تعالى :

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ)

[سورة المطففين : الآية 15]

أما في الدنيا فلا نحتمل ، قال تعالى :

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ)

[سورة الكهف : الآية 110]

اللقاء الذي نألفه ، والذي نحتمله ، والذي يليق بكمال الله عز وجل ، قال تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

اعمل عملاً صالحاً للقاء الله :

لو أنّ جندياً غرّاً التحق بالثكنة قبل يومين ، وهذه الفرقة كبيرة جداً على رأسها لواء ، لا يمكن أن يقابله لا عميد ، ولا عقيد ، ولا رائد ، ولا مقدم بسبب مكانته ، يستطيع هذا الجندي الغر أن يدخل عليه بلا استئذان ؟ مستحيل ، أما هذا الجندي لو أنه رأى ابن هذا القائد يسبح في مسبح ، وأوشك على الغرق اختناقاً ، وألقى بنفسه ، وأنقذه ، وعلم الأب هذا ألا يستطيع هذا الجندي الغر الذي لم يمض على التحاقه بالثكنة أربعة أيام أن يدخل على باب هذا القائد من دون استئذان ، بلى ، يستطيع ، لأن وجهه أصبح أبيض ، معه عمل ، لذلك الأمر بسيط جداً ، قال تعالى :

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا)

أكرم عباده ، وأصدقهم وأنصحهم ، لا تبتز أموالهم ، لا تؤذهم في حاجاتهم ، لا تؤذهم في مساكنهم ، لا تملأ قلوبهم خوفاً منك ، قال الرسول الكريم :

((الخلق كلهم عيال الله وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله))

[ورد في الأثر]

لا نقل لإنسان : من أين أنت ؟ فهو عبد مأمور ، إن أكرمته فكأنك أكرمت ربك ، فإذا مرّ بك صديق ، ومعك ابنك الصغير ماذا يفعل هذا الصديق كي يتقرب إليك ؟ يخرج من جيبه قطعة حلوى ، ويقدمها إلى ابنك ، هي في الحقيقة لك ، توصل هذا الصديق إليك عن طريق ابنك ، هذا المثل دقيق جداً ، إن

أردت أن تُكرم ربك فأحسن إلى عباده ، والأصح أحسن إلى خلقه ، إنك إن أحسنت إلى هرة ، أو إلى كلب مريض لو عالجت أحد مخلوقاته لكان الله شاكراً لك ، هذا هو الدين بكل بساطة أي هناك بعض الآيات التي قالها سيدنا عيسى
قال تعالى :

(وَأَوْصَايَ بِالصَّالَةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا)

[سورة مريم : الآية 31]

لو أردت أن تضغط الدين كله في كلمتين اتصال بالخالق ، وإحسان إلى المخلوق ، أي حركة نحو السماء وحركة نحو الأرض ، اتصال بالخالق وإحسان إلى المخلوق ، هذا هو الدين ، هذه حقيقة الدين ،
قال تعالى :

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ)

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ

[سورة آل عمران : الآية 52]

1 - الله يميّز الصالح من غيره :

أحياناً الله عز وجل يقوم بفرز ، الهجرة كانت فرز لمن دخل بالإسلام ، لكن هو معتز بقومه متعلق ببيته ، وماله ، وأقرانه ، وأقربائه ، فلما هاجر النبي رفض أن يهاجر ، فهذا فرز من الهجرة ، الهجرة فرز ، حديث الإسراء والمعراج فرز آخر ، كل شيء منطقي ، أما هذا فغير معقول ، يذهب إلى بيت المقدس ، ويعود في زمن قصير ، فهذا شيء غير معقول ، فالذي سمع حديث الإسراء ، والمعراج ، ولم يكن إيمانه بالله قوياً اهتز ، وهناك من ترك النبي عقب الإسراء والمعراج ، فإله عز وجل يفرز ،
قال تعالى :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

[سورة آل عمران : الآية 179]

2 - الفتنة ابتلاء :

الله يبتلي بفتنة أحياناً لحكمة أرادها فيفرز الناس ، ففي معامل الإسمنت كل طبخة تُصب في مكعبات معينة ، وهناك جهاز يمتحن قوة تماسك هذه الطبخة ، فهناك مكعب إسمنتي يُمسك من أعلاه ، وهناك كفة ميزان في أسفله تُوضع عليها الأثقال تباعاً ، فعلى أي وزن انكسر تكون هذه قوة مقاومته ،

الإسمنت يتحمل قوى ضغط ، وهي خمسمائة وخمسون كيلوغراماً على السنتيمتر المربع ، لكن لا يتحمل شد أكثر من خمسة كيلوغرامات على السنتيمتر المربع ، لا بد من إسمنت مسلح ، لأنه لا يتحمل الشد يُكسر ، بينما الضغط خمسمائة وخمسون كيلوغراماً يتحملها مكعب من الإسمنت ضلعه سنتيمتر واحد ، أما على الشد فلا يحتمل قوة خمسة كيلوغرامات ، هذا مثل ، وكل مؤمن عنده قوة تماسك ، فهناك مؤمن يفقد تماسكه بضغط معين أما سيدنا بلال فقد وُضع على الرمضاء في أيام الصيف الحارة، ووُضعت على صدره صخرة ليكفر بمحمد ، وهو يقول : أحد أحد ، فقوة تماسكه عجيبة ، سيدنا سعد بن أبي وقاص ضغطت عليه أمه ، إما أن تكفر بمحمد ، وإما أن أدع الطعام حتى أموت فقال لها : يا أمي لو أن لك مئة نفس فخرجت واحدة واحدة ما كفرت بمحمد ، فكلي إن شئت أو لا تأكلي . فكل مؤمن له قوة تماسك ، هناك مؤمن قوة تماسكه عجيبة جداً لا تستطيع سياط الجلادين اللاذعة ضغطاً ، ولا سبائك الذهب اللامعة إغراءً أن تتنيه عن هدفه ، قال تعالى :

(فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ)

3 - حتمية أزلية المعركة بين الحق والباطل :

هناك معركة أزلية أبدية بين الحق والباطل ، لا بد لهذه المعركة ، والناس لهم ولاءان ؛ ولاء للحق أو للباطل ، والمعركة مستمرة ، والله لا بد من أن يفرز عباده المؤمنين ، قال تعالى :

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

وقال :

(قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ)

[سورة آل عمران : الآية 52]

قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ

هنيئاً لمن كان من أنصار الإسلام :

أنا أقول لكم : أيها المؤمنون هنيئاً ، وألف هنيئاً لمن كان من أنصار الله ، لمن كان جندياً للحق ، لمن كان في خدمة الحق ، لمن وظف طاقاته في خدمة الحق ، لمن أنفق ماله في سبيل الله ، لمن أنفق وقته

في سبيل الله ، لمن أنفق علمه في سبيل الله ، لمن أنفق خبرته في سبيل الله ، لمن أنفق عضلاته في سبيل الله ، هنيئاً له هو الراجح الأول ، والويل لمن كان في خندق مضاد للحق ، قال تعالى :
(**فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**)

[سورة آل عمران : الآية 52]

هنيئاً لمن كان من أنصار الله ، ولمن وضع كل طاقاته في سبيل الحق ، ولا تقلق على هذا الدين ، لأنه دين الله ، لكن اقلق ما لم سمح الله لك أن تنصره أو لم يسمح ، فإن كنت في خندق آخر فالنتيجة معلومة، قال تعالى :

(**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**)

[سورة الأنفال : الآية 36]

(**قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سُنُوعُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**)

[سورة آل عمران : الآية 12]

إذا كان الله معك كان كل شيء معك ، إذا كان الله معك فمن عليك ، وإذا كان الله عليك فمن معك .

والحمد لله رب العالمين